

علم الاجتماع السياسي هو فرع من فروع علم الاجتماع ، وله صلة وثيقة بكل من علم الاجتماع والعلوم السياسية سنوضحها فيما بعد . وقبل ظهور علم الاجتماع السياسي خلال فترة الأربعينات من هذا القرن كانت معظم مصطلحاته ومواضيعه وفروضة وحقايقه وقوانينه داخلة في حقل علم الاجتماع والعلوم السياسية . الا انها انفصلت واستقلت عن هذين العلمين وأصبحت تشكل وحدة قائمة بحد ذاتها إلى حقل الاجتماع السياسي الذي ظهر للعيان كعلم مستقل بعد زيادة وتشعب وظائف الدولة وتعاضم أهميتها للفرد والمجتمع على حد سواء . وبعد ظهور المشكلات السياسية والاجتماعية الناجمة عن تعقد طبيعة العلاقات التي تربط المجتمع بالدولة وتربط الشعب بالدولة وتربط الدول بعضها البعض . وعلى الرغم من ظهور وتكامل واستقلال علم الاجتماع السياسي منذ فترة ليست بعيدة الا ان تراثه الفكري والعلمي قديم قدم المجتمع البشرى نفسه وقدم السياسة والدولة . ان الاصول التاريخية والفكرية لعلم الاجتماع السياسي تمتد الى الحضارات الإنسانية القديمة كحضارة وادي الرافدين ووادي النيل . وانها تأخذ بالتشعب

والتطور والنمو كلما تشعبت وتطورت حضارة الإنسان وكلما ارتقت المعرفة البشرية وتوسعت المدارك الفلسفية والعلمية والحضارية ، لذا يتطلب منا استعراض تطور الفكر الاجتماعي والسياسي ابتداء منذ ظهور الحضارات القديمة ومرورا بالحضارة العربية الإسلامية وانتهاء بعصر الاضطرابات والفتنة السياسية والثورات القومية التحريرية التي اجتاحت القارة الأوروبية خلال القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر . هذا العصر الذي برز خلاله عدد من المفكرين الاجتماعيين.

والسياسيين أمثال ميكيفيلي ، تيكيفيلي ، هيجل ، ماركس ، ماكس فيبر ، وغيرهم من الذين ساهموا في تطور الفكر الاجتماعي والسياسي ولعبوا الدور الكبير في نمو واكتمال واستقلالية علم الاجتماع السياسي كعلم موضوعي يهتم بدراسة الظواهر والنظم السياسية في ضوء البناء الاجتماعي والحضارة السائدة في المجتمع .

إسهامات العلماء في تطور علم الاجتماع السياسي

أولا : إسهامات علماء الشرق القديم في تطور علم الاجتماع السياسي

لو نظرنا إلى الفكر الاجتماعي والسياسي في الشرق القديم إبان عصر حضارتي وادي الرافدين ووادي النيل لشاهدنا وجود أفكار ناضجة ومكتملة حول العلاقة بين المجتمع والدولة وأهمية كل منهما لأخر. نجد في العراق القديم مثلا فلسفات وشرائع وحكما اجتماعية وسياسية على جانب كبير من الرقي والتقدم .

وهناك فلاسفة تركوا وصايا وإرشادات وعبر لا تزال حتى الان تعتبر من مقومات الحياة الاجتماعية والسياسية . فقد قام حمورابي بإنشاء أول مسلة عرفها التاريخ دونت فيها الشرائع والقوانين والحكم والوصايا التي نظمت شؤون المجتمع المختلفة وحددت المثل الفلسفية والأخلاقية التي يجب ان يسير عليها الملك وأفراد الشعب وذلك من خلال تحديد واجبات وحقوق الملك إزاء الشعب وواجبات وحقوق الشعب إزاء الملك والدولة . أما ألوان التفكير الاجتماعي والسياسي عند المصريين القدماء فتتمثل بالآثار التي تركوها. فمعتقدات المصريين الدينية وعنايتهم بدفن موتاهم وحبهم لإظهار عظمتهم وتسجيل فتوحاتهم قد أمدتنا بمصادر صحيحة وصريحة عن حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية . لقد امتاز المصريون بحسن السياسة وفن الإدارة واستطاع الحكام بفضل ذلك ان يسيطروا سيطرة تامة على أمور بلادهم .

وخلال عصر الحضارة اليونانية نمت وتطور الفكر الاجتماعي والسياسي إلى درجة كبيرة ، وظهر عدد من الفلاسفة والمفكرين البارزين مثل أفلاطون وأرسطو وسينكا وسيسرو الرومانيين .

فقد وهب أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) عدة أفكار ونظريات عن الدولة والمجتمع وطبقاته وفلسفته السياسية . وانعكست أفكاره ونظرياته هذه في كتابة الموسوم " الجمهورية " والكتاب يهدف إلى وضع الأسس المثالية التي يجب ان يركز عليها المجتمع الإنساني كالعادلة الاجتماعية مثلاً والتي يقول عنها بأنها من أهم الأهداف السياسية التي يجب على الدول تحقيقها.

وأشار أفلاطون في كتابه بأن الطبقة المثقفة يجب ان تقود وتحكم المجتمع لأنها أعرف من غيرها بالسبل والغايات التي تجلب الخير والرفاهية والسعادة للإنسان . كما ذكر بأن المجتمع مكون من أنظمة متصلة الواحدة بالأخرى كالنظام السياسي والاقتصادي والديني والعائلي . وإن أى تغيير فى أحدهما لابد ان ينعكس على بقية الأنظمة الأخرى . ومن أهم أفكاره الأخرى توضيحه للعلاقة بين الفرد والدولة بقوله ان رئيس الدولة يجب ان يضحي بنفسه من أجل خدمة المجموع . ونادى بأن المثالية الأفلاطونية والمجتمع المثالى لا يمكن تحقيق أهدافه دون قيام الفرد بالتفانى من أجل خدمة أبناء الشعب جميعهم .

أما أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) فقد عالج عدة مواضيع فلسفية واجتماعية وسياسية اهمها كيفية تكوين الجماعات السياسية . يعتبر أرسطو الأسرة بأنها أول خلية اجتماعية ، وهى أول اجتماع تدعو اليه الطبيعة لأن هنالك ضرورة أولية تودى الى اجتماع كائنين لا غنى لأحدهما عن الآخر وان الحياة السياسية لا يمكن ان تتحقق على وجه صحيح الا فى الأسرة التي وظيفتها القيام بالحاجات اليومية . ومن اجتماع عدة أسر تنشأ القرية وهى وحدة اجتماعية أوسع نطاقاً وتقوم بوظائف أكثر تنوعاً من الأسرة الا ان طبيعة تكوينها تسمح بتقسيم العمل . ومن اجتماع عدة قرى تتكون المدينة أو الدولة ، وهى أكمل الدرجات الاجتماعية وأتمها وأوضحا قصداً تكفى نفسها بنفسها وتضمن للأفراد وسائل العيش .

وهو المفكر الرومانى سينكا الذى ولد فى مدينة قرطبة عام (٤ ق.م) الكثير من الأفكار الاجتماعية والسياسية أهمها اعتقاده بدور الملكية فى تحديد الطبقة الاجتماعية للإنسان ، وأهمية المال والثروة فى رسم مجال القوة والسلطة السياسية التي يهيمن عليها الحاكم . حيث قال بأن أغنياء المجتمع غالباً ما يكونوا حكامه الشرعيين . كما نادى بضرورة فصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية وقال بأن رجال الدين يجب ان لا يتأثر بأحكام السلطة السياسية فى البلاد اما الفيلسوف الرومانى سيسيرو فقد اعتقد بضرورة تكوين الدولة المثالية التي يجب ان تكون على غرار جمهورية أفلاطون الا أنه ذكر بأن المجتمع الرومانى يجب ان لا يسعى وراء المثالية لأنه مجتمع خير وليس فيه ما يدل على وجود التعسف والظلم الاجتماعى . كما أكد على أهمية الحياة الاجتماعية والسياسية وذلك لما تقدمه من قوانين وضوابط سلوكية وأخلاقية للأفراد الذين شاركوا فيها ، ووضح أضرار العزلة الاجتماعية التي لا تعطى مجال للإنسان الانتفاع من قدراته وطاقاته إضافة الى مقارنته بين التكامل الاجتماعى والتكامل السياسى للمجتمع والدولة .

ثانياً : إسهامات علماء المسلمين فى تطور علم الاجتماع السياسى :

وخلال عصر الأمبراطورية العربية الإسلامية تبلورت الآراء والمفاهيم والنظريات الاجتماعية والسياسية التي تفسر أصل نشوء المجتمع وتطوره وعلاقة المجتمع بالدولة على أيدي المفكرين الاجتماعيين والسياسيين العرب كالفارابى وابن خلدون والغزالي والحموى وابن بطوطة . وقد ركزت هذه المفاهيم والنظريات على دور الغريزة الاجتماعية فى تكوين المجتمع والدولة . فالغريزة الاجتماعية هى أساس الاجتماع الإنساني وان الانسان هو حيوان اجتماعى وسياسى بالطبيعة . فهو لا يمكن ان يعيش بمعزل عن الآخرين ولا يمكن ان يحصل على أهدافه وطموحاته دون وجود سلطة تنظم وتشرف على واجبات وحقوق الأفراد وتنتشر العدل والمساواة والحرية فى ربوع المجتمع . علينا هنا دراسة النظريات الاجتماعية و السياسية للفارابى وابن خلدون لنتطلع على دور الحضارة العربية فى إغناء الفكر الاجتماعى و السياسى العالمى ، هذا الفكر الذى تمخض عنه فى النهاية ظهور وبلورة علم الاجتماع السياسى .

الفارابى هو من المفكرين الاجتماعيين والسياسيين العرب الذين برزوا فى مواضيع السياسة والاجتماع والفلسفة . ولد عام ٨٧٠م وتوفى عام ٩٥٠م من أهم مؤلفاته كتاب " السياسات المدنية " وكتاب " أهل المدينة الفاضلة " والكتاب الأخير هو من أشهر

مؤلفاته اذ كان على غرار كتاب جمهورية أفلاطون من حيث ترتيبه العلمى وحكمه الفلسفية والسياسية . والغاية من تأليف كتاب أهل المدينة الفاضلة هى توضيح طبيعة المجتمع الفاضل والدولة المثالية . وقد قسم هذا الكتاب إلى قسمين : قسم يهتم بدراسة الأسس الفلسفية التى تستند عليها المدينة الفاضلة . والقسم الثانى يوضح المبادئ التى تقوم عليها المدينة الفاضلة . وقد عالج الفارابى فى هذا الكتاب أيضاً حقيقة الاجتماع الانسانى وحقيقة الدولة وأصل نشؤها .

بدأ الفارابى بحوثه الاجتماعية بتحليل حقيقة الاجتماع الإنسانى والدوافع الأساسية إلى قيامه ولا شك انه رجع فى هذا الصدد إلى أرسطو عندما قال بأن الإنسان حيوان اجتماعى بطبيعته أى يحتاج إلى أشياء كثيرة لا يستطيع الحصول عليها بمفرده . فهو لا بد له من التعاون مع أعضاء جنسه لكى يستطيع بلوغ الكمال ، والكمال الذى يقصده الفارابى هنا هو السعادة . ولا يتم الفرد تحقيق السعادة فى نفسه عن طريق التعاون المادى فحسب بل لا بد له من التعاون الروحى والفكرى لأن السعادة تتصل بتحقيق الأشياء المادية والروحية فى آن واحد . ورجبة الإنسان فى تحقيق السعادة للمجتمع وتحقق أمانى الأفراد . وإذا ما انتشرت السعادة فى المجتمع وكان انتشارها يعتمد على مبادئ العدالة والمساواة فان المدينة التى كتب عنها الفارابى ستظهر للعيان . وقد تكلم الفارابى بإسهاب عن المدينة الفاضلة وهى المدينة التى يتعاون أفرادها واحدهم مع الآخر لغرض نيل السعادة ، كما يجب على كل واحد منهم القيام بعمل معين والتخصص به .

وأهم وظائف المدينة وأكبرها خطراً وظيفة الرئاسة . وذلك لأن الرئيس هو منبع السلطة العليا وهو المثل الأعلى الذى تتحقق فى شخصيته جميع معانى الكمال وهو مصدر حياة المدينة ودعمها نظامها . ومنزلة الرئيس بالنسبة للأفراد كمنزلة القلب بالنسبة لسائر أنحاء الجسم ولذلك لا يصلح للرئاسة حسب اعتقاد الفارابى الا من زود بصفات وراثية ومكتسبة يتمثل فيها أقصى ما يمكن ان يصل إليه الكمال فى الجسم والعقل والعلم والخلق والدين .

أما المفكر الاجتماعى العربى ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) فقد كان مهتما بمواضيع كثيرة أهمها الأدب والفلسفة والتاريخ والسياسة والاجتماع الذى أطلق عليه فى كتابه " المقدمة " اسم علم العمران البشرى " الذى يدرس ما استطاع الإنسان إنجازاه فى البيئة الحضريّة من معالم المدنية والتراث الحضارى وباقي الفنون الحياتية التى طورت المجتمع ونمته فى ضروب ومجالات مختلفة . ودرس ابن خلدون المجتمع دراسة تاريخية اذ اعتقد بأنه يمر فى مراحل تاريخية متباينة ، وكل مرحلة حضارية متصلة بالمرحلة الحضارية التى سبقتها . وأشار إلى أن دراسة الماضى ترشدنا إلى فهم الحاضر والتنبؤ عن المستقبل ، ودراسة كهذه تعود إلى موضوع فلسفة التاريخ الذى برز فيه ابن خلدون قبل غيره من مفكرى وفلاسفة العالم .

ولا يكتفى ابن خلدون بان يقرر ان المجتمع حقيقة يجب ان تدرس وان علم

الاجتماع هو الذى يدرس المجتمع البشرى وما يلحقه من عوارض .

بل يحاول أكثر من ذلك اذ يحلل الضرورة الاجتماعية ويكشف عن الدعائم التى تقوم عليها . فيقول ان الاجتماع الانسانى ضرورى لأن الإنسان مدنى بطبعه ويسير فى شرح هذه القضايا على وتيرة من سبقه من مفكرين كأرسطو والفارابى . ويقرر ان عدم كفاية الفرد لنفسه يدفعه إلى التعاون والاشتراك فى حياة الجماعة ومن ثم ينشأ التضامن الذى يعتبر أقوى الدعائم التى يقوم عليها المجتمع وهكذا . وما فطر عليه الإنسان من شعور نحو الجماعة يدفعه إلى الاستكمال بغيره ليستكمل بذلك خواصه النوعية والجنسية فضلا عن حاجاته الضرورية وقد يكون التضامن على أنواع كثيرة كالتضامن الاقتصادى والسياسى والثقافى والعائلى . ففى حالة التضامن السياسى أى دخول الأفراد بعلاقات تعاونية تستهدف تمشية أمور المجتمع والسيطرة عليه والكفاح من أجل تحقيق أهدافه وطموحاته فان الدولة تظهر من هذا التضامن .

والدولة حسب اعتقاد ابن خلدون من أقوى مظاهر التضامن الاجتماعى وأكثرها أهمية وخطورة فى تحديد معالم المجتمع وصورته السياسية . والدولة كالمجتمع فى نظر ابن خلدون شىء طبيعى وهى لهذه الصفة تخضع لقوانين عامة ، مثلها

فى ذلك مثل الظواهر الفردية وظواهر الحياة فى الكائنات الحية . ولذلك يبذل قصارى جهده فى تفسير مبادئها وتحليل وظائفها والكشف عن العوامل التى تؤثر فى نشأتها واستقرارها وتطورها .

ثالثاً : إسهامات علماء أوربا فى تطور علم الاجتماع السياسى

وفى أوروبا ظهر عدد كبير من المفكرين السياسيين والاجتماعيين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أمثال توماس هوبز وجون لوك فى إنكلترا وجان جاك روسو ومنتسكيو فى فرنسا الذين طوروا الدراسات السياسية والاجتماعية فى مجالات كثيرة ومهمة . فقد تساءلوا عن العوامل والأسباب التى دفعت الإنسان لتكوين المجتمع والدولة ومنح الدولة الصلاحيات المطلقة لقيادته والتصرف بشؤونه . وقد أجابوا عن هذه الأسئلة ووضحوها وشخصوا معالمها بكتاباتهم السياسية والاجتماعية . ان توماس هوبز وجون لوك الإنكليزيان وجان جاك رسو ومنتسكيو الفرنسيان هم من أقطاب مدرسة العقد الاجتماعى . فأقطاب مدرسة العقد الاجتماعى بإستثناء روسو يجمعون على ان الإنسان بطبيعته حيوان لا اجتماعى ولا عدائى . ففى البداية كان معزولاً عن أبناء جنسه ومدفوعاً لسد حاجاته الشخصية التى تتناقض مع حاجات وطموحات الآخرين .

نظريات الفلاسفة والعلماء فى علم الاجتماع السياسى

سعى الإنسان القديم لسد حاجاته الخاصة بمفرده والحصول على مكاسب شخصية دفعه للاصطدام مع الآخرين والقتال معهم ، الأمر الذى خلق حالة الاضطراب والفوضى والقلق المستمر التى سيطرت على الأفراد والجماعات . فقد كان القوى يسلب أموال وحقوق الضعيف بالقوة ويتمتع بها لفترة من الزمن ، ولكن سرعان ما يضعف القوى فتسلب حقوقه وممتلكاته من قبل شخص أقوى منه . وحالة كهذه سببت الفوضى والدمار المستمرين ونتاجت فى قصر عمر الإنسان . وقد ساد قانون الغاب على علاقات الأفراد ، هذا القانون الذى يعتقد بأن الحق للقوة والفرد الذى لا قوة له ليس لديه حق . واستمر قانون الغاب (The Law of Nature) يحكم الأفراد والجماعات لفترة طويلة إلى ان قرر الأفراد إنهاء مفعوله والقضاء على حالة الاضطراب والدمار وذلك من خلال الاتفاق الجماعى بين الأشخاص الأقوياء والضعفاء والتوقيع على العقد الاجتماعى . هذا العقد الذى يستهدف انتخاب سلطة سياسية من بين الأفراد عن طريق الإستفتاء العام (Referendum). وتنازل الأفراد عن حقوقهم إلى السلطة التى اختاروها . والسلطة هذه تقوم بإعادة توزيع الحقوق والواجبات الاجتماعية على الأفراد بطريقة مشتقة من طبيعة واقعهم الاجتماعى ومن مبادئ العدالة والمساواة الاجتماعية . وبعد اختيار السلطة السياسية هذه (الدولة) تقوم الأخيرة بتأسيس المنظمات الوظيفية على اختلاف أنواعها كالمنظمات الاقتصادية والسياسية والثقافية والعسكرية الخ ثم تحدد قوانينها وأحكامها (مؤسساتها) . وهنا يظهر البناء الاجتماعى وتنشأ العلاقات والتفاعلات الاجتماعية .

لكن هنالك اختلافاً بين مفكرى العقد الاجتماعى حول طبيعة العامل الذى دفع الأفراد إلى التوقيع على العقد الاجتماعى الذى ينهى قانون الغاب ويكون المجتمع المدنى . فالمفكر هوبز يعتقد فى كتابه " Levathian " بأن خوف الإنسان من أخيه الإنسان هو الذى دفعه لتكوين المجتمع . بينما يعتقد لوك بأن رغبة الإنسان فى المحافظة على حقوقه المدنية والمادية وممتلكاته هى التى دفعته إلى تكوين المجتمع والدولة . أما جان جاك روسو فيعتقد بان غريزة الإنسان الإجتماعية وحبه للمصالح العام ورغبته فى نشر العدالة الاجتماعية هى التى حفزته على إنشاء المجتمع والدولة .

وخلال القرنين التاسع عشر والعشرين تطور الفكر السياسى والاجتماعى على يد مجموعة من الفلاسفة والمفكرين أشهرهم هيجل وماركس وماكس فيبر وباريتو وميشيل . ونود هنا شرح وتحليل الهبات الفكرية والعلمية التى منحها كل مفكر لتطوير الفكر الاجتماعى والسياسى العالمى فى السطور التالية:

هو من أشهر الفلاسفة والمفكرين السياسيين والاجتماعيين الألمان . وقد اشتهر بابتداع قانون الدايلكتيك (Law of Dialectics) الذى يهدف إلى حل المتناقضات والأضداد بين الأفكار (Theses) والأفكار المضادة (Anti Theses) حلا وسطا وذلك من خلال الاعتراف بصحة جزء من الأفكار وجزء من الأفكار المضادة والتوحيد بينهما واشتقاق أفكار جديدة تختلف عن جميع الأفكار والأفكار المضادة المطروحة على بساط البحث الفلسفى والعلمى . وقد استعمل هيغل الدايلكتيك فى فهم التاريخ وفهم المجتمع البشرى وفهم طبيعة المعرفة العلمية (Epistemology) التى قال بأنها وليدة الصراع بين الفكر والطبيعة . وفى جميع كتاباته أشاد بالدور المهم الذى تلعبه الدولة فى حياة الأفراد والجماعات . وذكر فى كتابه " فلسفة الحق " بأن الدولة هى وعى الروح وظل الله فى الأرض لهذا وجب عبادتها وتقديسها وتمجيد أعمالها وأهدافها . كما قال بأن الدولة هى مصدر العلم والمعرفة وهى النقطة التى يتوحد فيها العقل والحرية . والدولة بإعتقاده هى الحق والمنطق والعقل وما بعد الحق والمنطق والعقل إلا الظلم والجهل والفساد . وبعد هذه الأقوال عن مآثر وأهمية الدولة للمجتمع يقوم هيغل بتفسير أصل نشوء المجتمع والدولة فى كتابه " فلسفة الحق " .

يعتقد هيغل بأن الدولة وليدة العائلة وان المجتمع المدنى وليد العائلة أيضاً. لكن العواطف الطبيعية عند الإنسان هى التى تدفعه إلى الزواج وتكوين العائلة . والعائلة البشرية تعتمد على عاطفة الحب وتعتمد على الإرث والملكية المشتركة .

ولا توجد فى المجتمع عائلة واحدة وإنما توجد عوائل متعددة تجتمع فيما بينهما وتكون المجتمع المدنى الذى نعرفه . وعندما توجد عدة عوائل فى بقعة واحدة وتشترك فى لغة وتاريخ وعادات وتقالييد مشتركة ولها مصالح اقتصادية مختلفة فان الصراع لابد ان ينشب بينها . وهنا تظهر الدولة لتحل الصراع الذى يقع بين الأفراد والعوائل وفى نفس الوقت تتولى القيام بعدة وظائف للأفراد والجماعات . يقول هيغل ان ما هو موجود أولاً هو العائلة التى فيها تتجسد الإرادة وتفرض الذاتية بملء رضاها . والعواطف الطبيعية هى أساس تكوين الأسرة . وفى الواقع لا توجد أسرة واحدة بل هناك أسر تنتظم فى قلب صراع البقاء . ووجود الأسرة يعتمد على وجود المجتمع الذى يزودها بمقومات المعيشة والبقاء ويدافع عنها ضد الأخطار التى تهدد كيانها . وصراع الأسرة أو العوائل ينتج فى ظهور الدولة التى تحل الصراع وتضمن الخير والعدالة فى المجتمع . ويضيف هيغل قائلاً ان ماهية الدولة هى الكلى فى ذاته ومن أجل ذاته ، والعنصر العقلى للإدارة عنصر ذاتى بوصفه يعرف ذاته ويتوطد على أنه كذلك ، عنصر له فرديته بما هو واقعى . ان عملها بوجه عام مزدوج بالنسبة للفردية فى تطرفها أى بالنسبة للأفراد جمهوراً . فيجب عليها أولاً أن تحافظ عليهم أشخاصاً ، وبالتالي ان تجعل من الحق واقعا ضروريا ، ثم ان توفر لهم رفاهيتهم التى يعمل كل واحد منهم ويسعى إليها لنفسه مع ان لها جانباً عاماً ويجب عليها ان تحمى الأسرة وتتولى قيادة المجتمع المدنى .

أما بالنسبة لنظرية كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣ م) عن أصل المجتمع والدولة فإنها تستند على آرائه وتعاليمه المادية والتاريخية الدايلكتيكية وتعتمد على ظاهرة الصراع الطبقي الاجتماعى الذى يقع بين الطبقة البرجوازية التى تمتلك وسائل الإنتاج والملكية الواسعة وتتمتع بالنفوذ الاجتماعى والسياسى والطبقة العمالية الكادحة التى لا تمتلك أى شىء سوى جهودها وطاقاتها البشرية التى تبيعها بأجور زهيدة إلى الطبقة البرجوازية . والصراع الطبقي الذى أساسه الملكية ووسائل الإنتاج دائماً ما ينتهى بالثورة التى تغير معالم المجتمع البشرى من شكل لأخر .

وتكوين المجتمع البشرى بالنسبة لماركس يعتمد على عامل زيادة وتكاثر السكان وظهور الحاجة الملحة لإدخال نظام تقسيم العمل الذى يضمن سد حاجات السكان المتزايد للمواد الغذائية والمواد الأخرى التى يحتاجها فى حياته اليومية ، وخلال فترة زيادة وتكاثر السكان والاعتماد على منهج تقسيم العمل والتخصص فيه تظهر الطبقات الاجتماعيه ويظهر

الصراع بينهما . وعند ظهور النظام الطبقي يظهر المجتمع البشرى الذى ينظم حقوق وواجبات الطبقات الاجتماعية . وتلعب الطبقة العليا التى تسيطر على وسائل الإنتاج الدور الكبير فى تحديد قوانين مسيرة المجتمع ورسم علاقات الإنتاج وتعيين طبيعة العلاقات التى تربط طبقات المجتمع واحدها بالأخرى .

وعندما ينشب الصراع بين الطبقات تظهر الدولة لتحمل مسؤولية تخفيف حدة الصراع وعدم مجابهة الطبقة الاجتماعية للطبقة الأخرى . ولكن الصراع الطبقي يظهر بين القبائل عندما تتفاوت الأحوال المعاشية والاقتصادية بين الأفراد والجماعات . وقد ظهر فعلا فى القبائل اليونانية والرومانية خصوصا بين الطبقة الأستقرابية (طبقة الأحرار) وطبقة العبيد . وبعد سقوط المجتمع القديم الذى كان قائما على مبدأ الصراع بين أفراد القبائل ظهرت الدولة لتتولى تخفيف أو إنهاء حدة الصراع . الا أن الدولة بعد ظهورها تمكنت من تكوين سلطة متنفذة وقادرة على الوقوف فوق مصالح الطبقتين المتصارعتين وقد منحت هذه السلطة قوة كافية لتحل الخصام وتنشر الأمن والطمأنينة والسلام فى ربوع المجتمع . وفى بادئ الأمر كانت هذه السلطة عادلة ومنصفة وليس تحت تأثير الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج . ولكنها سرعان ما انحرفت عن مبادئ العدل والمساواة وأخذت تتحاز وتتعصب للطبقة التى تمتلك وسائل الإنتاج . وخلال فترة العهود الإقطاعية والرأسمالية أصبحت السلطة جزءاً لا يتجزأ عن الطبقات المالكة لوسائل الإنتاج والطبقات المستغلة خصوصاً عندما أصبحت الدولة نفسها تتكون من مالكي وسائل الإنتاج والمسيطرة على ثروات ومقدرات المجتمع . فأعضاء الطبقات الإقطاعية والرأسمالية لا يملكون مسببات القوة الاقتصادية والاجتماعية فحسب بل يملكون أيضاً مسببات القوة السياسية والقانونية .

وقد استعملت هذه القوة فى قهر الطبقة الفلاحية فى المجتمع الإقطاعى والطبقة العمالية فى المجتمع الرأسمالى . ومثل هذا الظلم والقهر الذى تمارسه الطبقة الحاكمة سيولد تأجج الوعى الطبقي عند أبناء الطبقة المحكومة على حد قول ماركس والوعى الطبقي سيساعد على تحقيق وحدة هذه الطبقة . وبعد تحقيق الوحدة الطبقيّة تقوم الطبقة المحكومة بإعلان التمرد والثورة ضد الطبقة الحاكمة . هذا التمرد الذى غالبا مايسبب سقوط الدولة والمجتمع الإقطاعى أو الرأسمالى وظهور مجتمع جديد يعتمد على مبادئ العدالة والحرية والمساواة .

واهتم ماركس بمسألة الصراع ومسألة الاتفاق حيث اعتبر الصراع حقيقة قائمة بين طبقات المجتمع البشرى ولا يمكن التخلص منها الا بتحقيق مجتمع عديم الطبقات (المجتمع الشيوعى) . وذكر بأن الصراع بين الطبقات اشغل جميع المراحل التاريخية التى مر بها المجتمع الإنسانى ابتداء من المرحلة المشاعية وانتهاء بالثورة البروليتارية . وازداد الاتفاق والإنسجام والتكامل لا يمكن ان يتحقق الا بعد القضاء على الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي ، والقضاء على الطبقات والصراع الطبقي يشهده المجتمع البشرى بعد اجتيازه للمراحل المتقدمة الإشتراكية ودخوله فى مرحلة المجتمع الشيوعى .

ولما كان الاتفاق شيئاً قائماً فى المجتمع الشيوعى حسب اعتقاد ماركس ومفقودا فى المجتمعات العبودية والإقطاعية والرأسمالية التى كرس كتاباته الأكاديمية حولها فإنه يفصح عن مصادر التضامن والإستقرار فى هذه المجتمعات ومع هذا فإنه طرح بعض القضايا المتعلقة بالتنشئة الاجتماعية للفرد ونمو اهتماماته واتجاهاته وقيمه ومصالحه .

إذن تنطوى نظرية ماركس على نظامين اجتماعيين متكاملين : نظام يسوده الصراع ونظام آخر يسوده التضامن والإنسجام . ان النظام الأول بطبيعته يقف ضد كرامة وتطلعات وسعادة الإنسان ، لهذا يجب القضاء عليه وإنهاء مفعوله بأقرب وقت ممكن . أما النظام الثانى فيخلو من مصادر المنافسة والصراع وتسيطر عليه روح المحبة والسلام والطمأنينة . ونظام كهذا لا يحتاج إلى نظم ومؤسسات ديمقراطية تحمى سلطة الدولة وسلطانها وتدحر القوى المستبدة وتقضى على الظلم والقهر والجبروت .

أما العالم الاجتماعى والسياسى الألمانى ماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠ م) فقد وهب الكثير من الأفكار والمفاهيم والحقائق الجديدة التى طورت وبلورت حقل علم الاجتماع السياسى وجعلته على ما هو عليه الآن . والدراسات العلمية التى برز بها حقل علم الاجتماع السياسى وجعلته على ما هو عليه الآن . والدراسات العلمية التى برز بها فى حقل علم الاجتماع السياسى تتعلق بدراسته عن البيروقراطية والديمقراطية وبتقسيمه للدول والسلطات السياسية إلى ثلاث أطراف رئيسية هى السلطات العقلية والشرعية ، السلطات التقليدية، وأخيراً السلطات الكرزوماتيكية. ان دراسة البيروقراطية والديمقراطية قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً باسم ماكس فيبر . واهتمامه بها يعكس الفكر الاجتماعى للمراحل المتأخرة من الثورة الصناعية التى بدأت فى إنكلترا خلال القرن الثامن عشر وانتشرت إلى بقية الأقطار الأوربية فى القرن التاسع عشر بالتأثيرات المخربة للثورة الصناعية على المجتمع وفى نفس الوقت كانوا يفتشون عن هياكل سياسية تعزز دور الديمقراطية فى المجتمع الصناعى ويبحثون عن الظروف الإجتماعية والسياسية التى تمكنهم من إقامة المجتمع البيروقراطى الذى لا يمكن الإستغناء عنه فى المجتمع الصناعى . اعتقد فيبر بأن نمو وتكامل التنظيمات البيروقراطية هو شىء لا بد منه لإقامة المجتمع الصناعى المتطور ، والبيروقراطية تضمن المنظمات الاجتماعية وتحفز قوى التوازن الاجتماعى .

أى القوى التى تريد المحافظة على الوضع السابق للمجتمع ، على التصادم مع أسباب ومقومات التغيير . الا أن الديناميكية البيروقراطية سرعان ما تنتصر على القوى الرجعية والمحافظة وهنا هنا يستطيع المجتمع من بلوغ النمو والتطور الذى يدعم حركة التصنيع والتحديث الشامل .

عالج ماكس فيبر موضوع البيروقراطية معالجة سسيولوجية حديثة وذلك بعد ان فصل فكرة البيروقراطية عن الأفكار العاطفية والانفعالية التى أحاطت بها لفترة طويلة من الزمن . واعتقد ان النظام البيروقراطى هو شىء لا يمكن الاستغناء عنه عند إنجاز الأهداف العقلية لمؤسسات المجتمع الصناعى . وقد طبق فيبر مذهب المشهور النموذج المثالى فى تعريف ودراسة المزايا الجوهرية للنظام البيروقراطى .

وقال بان البيروقراطية تتميز بالصفات التالية :

- ١- الأحكام والقوانين العقلانية هى التى تحدد واجبات ووظائف الأدوار الإدارية فى المؤسسة ، وان هذه الأدوار هى أدوار أخصائية يحتلها الموظفون مؤهلون عقلياً وأكاديمياً .
- ٢- ان الأدوار الإدارية تكون على شكل مراتب متسلسلة من ناحية مقدار سلطتها وقوتها الإدارية .
- ٣- تعتمد الإدارة البيروقراطية على وثائق ومستمسكات مدونة لا يستطيع الهيمنة عليها إلا من حصل على تدريب ودراسة خاصة فى الشؤون الإدارية .
- ٤- يعين الموظفون على أساس مؤهلاتهم الفنية وقابلياتهم فى الإدارة التى اكتسبوها عن طريق الدراسة الطويلة أو التجربة والخبرة .
- ٥- لا يمتلك الموظف الإدارى مركزه الوظيفى ولا الأدوات التى يستعملها فى تنفيذ واجباته .

أما أفكار فيبر عن تقسيم الدول والسلطات فقد لعبت الدور المباشر فى تطوير علم الاجتماع السياسى .

يقسم ماكس السلطات إلى ثلاثة أقسام رئيسية هى :

(١) السلطة التقليدية (٢) السلطة العقلية – الشرعية (٣) السلطة الكرزوماتيكية .

السلطة التقليدية : هي التي تعتقد بان نظمها ما هي الا امتداد لنظم كانت موجودة فى الزمن السابق أو ان رئيسها تقلد منصبه بموجب مؤهلات معينة كانت شرعية فى الزمن الماضى أو أن الأوامر التي يصدرها بأوامر كانت مماثلة فى الزمن السابق و متفق على التصرف بموجبها . وهذا يعنى بأن الجماعة التي تخضع للسلطة التقليدية تطيع أوامر سلطتها بسبب شرعيتها التاريخية أو بسبب تعودها من الزمن القديم على إطاعة مثل هذه الأوامر .

أما السلطة الشرعية – العقلية : فإنها تعتقد بان نظم وأحكام السلطة ذاتها والطريقة التي من خلالها يشغل الفرد دور سلطته وأسلوب ادعاء السلطة يجب ان يتم بالطرق والأحكام القانونية العامة .

والسلطة الكرزماطيكية : تتجسد فى شخصية الفرد الذي يشغلها ، هذه الشخصية التي تتميز ببعض الصفات والمزايا المقدسة التي تدل على قابليته الفذة وسحر شخصيته وصلاحيته للدور الذي يحتله .

وفى جميع الحالات السلطات الثلاثة نشاهد بأن أحكام السلطة وقوانينها والطريقة التي يحتل بها الرئيس مركز قيادته وجوهر الحكم ومبدأ إصدار الأوامر كلها تعتمد على الاعتقاد بأن السلطة متصلة بصورة مباشرة أو غير مباشرة بقوة شرعية نهائية ومطلقة . وهذه قد تكون إرادة الله أو إرادة مؤسسى الخلافة أو المجتمع أو القانون الطبيعي أو إرادة الشعب .

وهذا يعنى بأن شرعية السلطات التقليدية والشرعية – العقلية حسب اعتقاد ماكس فيبر تعتمد على اعتقادها واتصالها بمصدر مقدس أى مصدر كرزماطيكى . الا ان السلطتين الأوليتين تختلفان عن السلطة الكرزماطيكية من حيث كون اتصالها بالمصدر المقدس غير مباشر فى حين تكون علاقة السلطة الكرزماطيكية بالمصدر المقدس علاقة مباشرة وعميقة .

٤- فلوريد وباريتو (١٨٤٨-١٩٢٣ م) .

أما العالم الاجتماعى و السياسى الإيطالى فلوريد وباريتو (١٨٤٨-١٩٢٣ م) فقد وهب عدة أفكار ومفاهيم ونظريات كان لها الدور المباشر فى نمو وتطوير علم الاجتماع السياسى . قد عبر عن أفكاره وتعاليمه الاجتماعية والسياسية فى كتابه الموسوم " العقل والمجتمع " الذى بين من خلاله حقيقة السلوك الاجتماعى والسياسى والقواعد التي تستند عليها العلاقات الاجتماعية بكافة أنواعها والفوارق بين الدوافع الحقيقية للسلوك والمظاهر الخارجية والعقلانية له . وفى دراسته هذه اعتمد على نظرية الرواسب والمشتقات التي استعملها فى تفسير مؤسسات المجتمع من حيث أصولها ووظائفها وبنائها وعلاقتها الواحدة بالأخرى وفى تفسير السلوك السياسى والعلاقات السياسية ذات الدوافع والأبعاد الاجتماعية .

كما أنه تطرق فى كتابه العقل والمجتمع إلى دراسة النخبة التي قسمها إلى قسمين أساسيين النخبة الحاكمة والنخبة غير الحاكمة . ووضح العلاقة بين النخبة والعوام من أبناء الشعب ودرس العوامل التي تكمن خلف دورة النخبة وعلاقتها بتوازن أو عدم توازن المجتمع .

أكد العالم باريتو فى أحد المقالات التي كتبها والموسومة " علم الاجتماع العام " على أهمية دراسة النظريات اللامنطقية ، هذه النظريات التي تعتبر بمثابة تفسيرات فلسفية ومثالية لظواهر لا يمكن تحليلها وشرحها بواسطة العلوم الطبيعية وهذه التفسيرات حسب اعتقاده تكمن فى عنصرين أساسيين : العنصر الدائم الذى سماه بالرواسب والعنصر المتغير الذى سماه بالمشتقات . فالرواسب تعكس العواطف الإنسانية وحالات العقل الشعورى التي يمكن مشاهدتها فى المجتمع الإنسانى مهما كان نوعه قديماً أو حديثاً بدائياً أو متقدماً . وغالبا ما تكون الرواسب مقنعة أو متكررة فى أشكال وصيغ مختلفة ، غير انه يمكن كشفها وتعريفها وفضح حقيقتها والتوصل إلى أهدافها ومقاصدها من خلال الفحوصات والاختبارات السيسولوجية . أما المشتقات فهي الوسائل أو السبل التي من خلالها تنفذ الرواسب أو هي الأشياء التي تكمن خلفها الرواسب . وهذه يقسمها باريتو إلى أربعة أصناف أساسية هي العبارات ، المظهر الخارجى ، الحجج الموضوعية

التي تبرر العاطفة ذاتها وأخيراً البراهين الكلامية .ويمكننا تطبيق نظرية البرفسور باريتو عن الرواسب والمشتقات على واقع وحقيقة الكيان الصهيوني الذي يدعى بأنه كيان يتكون من شعب مظلوم ومتعسف ضده وشعب يريد السلم والإستقرار والتقدم (هذه الإدعاءات الكاذبة والمزورة هي المشتقات التي تكلم عنها باريتو) بينما حقيقة الكيان العدوانية والعنصرية والتوسعية والإمبريالية واعتماده على أساليب الغش

والتزوير والكذب والخطر والكرهية للشعوب الآمنة والمستقرة هي الرواسب التي وضحاها باريتو فى سياق نظريته الاجتماعية والسياسية .

كما تكلم باريتو عن نظرية النخبة حيث قال بأن النخبة هي الطبقة الحاكمة أو المتنفذة فى المجتمع التى تشكل الأقلية من أبناء الشعب . وهذه الطبقة يمكن أن تميزها عن الطبقة المحكومة فى معيار القوة والسلطة والنفوذ فهى تتمتع بقوة ونفوذ وتأثير أكثر مما تتمتع به الطبقة المحكومة فى المجتمع . كما انه درس فى كتابه العقل والمجتمع الفوارق الأساسية بين النخبة الحاكمة والنخبة غير الحاكمة ووضح طبيعة التناقض والإنقسام التاريخى المستمر بين النخبة وعوام الشعب حيث ذكر بأن أساس التناقض والصراع بين الجماعتين يعزى إلى عامل القوة أى كون العوام مجردين عنها . وحقيقة كهذه تسبب انقسام المجتمع وتصدعه وقد يسيطر هذا الانقسام على جميع المؤسسات الاجتماعية البنيوية بضمنها المؤسسات السياسية خصوصاً الأحزاب والسلطات السياسية .

ويركز باريتو فى دراساته السياسية على دورة النخبة من حيث طبيعتها وأسبابها ويربط بين دورة النخبة والتغير الاجتماعى . فالمجتمع حسب تعاليمه ينقسم إلى فئتين النخبة التى تتكون من حكام وقادة وزعماء المجتمع حسب تعاليمه ينقسم إلى فئتين النخبة التى تتكون من حكام وقادة وزعماء المجتمع ومن الأشخاص المتنفذين والمسيطرين على مؤسساته المختلفة .

وهؤلاء يشكلون نسبة قليلة من أبناء المجتمع وقد أطلق عليهم باريتو بجماعة الأسود .

والفئة الثانية تتكون من عوام الشعب الذين ليس لهم قوة سياسية أو نفوذاً اقتصادياً واجتماعياً ولكنهم يملكون الطاقات الذكائية والقدرات البدنية الداينمكية التى تساعدهم على العمل والإنتاج وقد أطلق باريتو على هذه الفئة اسم الثعالب . والنخبة هى فى صراع دائم مع عوام الشعب بسبب القوة التى تمتلكها النخبة وتجردهم عوام الشعب منها والصراع المستمر بين الفئتين ينتهى بسقوط النخبة أو الطبقة الأستقرائية وصعود جماعة من عوام الشعب إلى مركز النخبة لاحتلالها والتمتع بحقوقها وإميازتها . فأعضاء النخبة لا يستطيعون احتلال مراكزهم القيادية أكثر من عشرين سنة على حد قول باريتو بسبب كبرهم وهرمهم وضعف قواهم العقلية والجسمانية وإصابتهم بمرض الخدر والترهل والملل من إشغال مراكز القيادة والقيام بوظائفها الرسمية والروتينية التى تجعل حياتهم ضيقة وميكانيكية ومملة . لهذا يضعف أدائهم ويقل عندهم روح العمل المبدع والخلاق . وفى الوقت الذى يتعرض فيه أعضاء النخبة إلى الملل والخدر والترهل والخمول تبادر جماعة من عوام الشعب خصوصاً تلك التى تتميز بالذكاء والنشاط والفاعلية والرغبة فى احتلال مراكز القيادة والحكم بمضاعفة جهودها وتكثيف نشاطاتها وتصعيد صراعتها مع فئة النخبة .

وغالباً ما ينتهى الصراع بفوز جماعة العوام على النخبة بحيث تفقد النخبة مراكزها القيادية وقوتها وتأثيرها وتنخفض إلى طبقة العوام فى حين تفوز جماعة العوام (الثعالب) إلى مراكز القوة والحكم . وهذه الظاهرة الاجتماعية والسياسية يسميها باريتو بدورة النخبة التى تصيب جميع المجتمعات البشرية أياً كان نظمها السياسية والايدولوجية . ونظريته عن دورة النخبة تفسر أفكاره حول السكون الاجتماعى والداينمكية الاجتماعية وبعد تفسيره للنخبة ودورة النخبة يقول باريتو بأن التاريخ هو مقبرة الأستقرائية ، أى ان النخبة سائرة نحو الزوال والاندثار عاجلاً أم آجلاً والتاريخ الإنسانى هو خير شاهد على ذلك .

٥- روبرت ميشيل (١٨٧٦-١٩٣٦) .

أما فضل العالم الاجتماعي السياسي الإيطالي روبرت ميشيل (١٨٧٦-١٩٣٦) في تطوير النظرية الاجتماعية والسياسية فيتجسد في نظريته عن الديمقراطية والاوليكراتية أي حكم الأقلية ، وفي تشخيصه لطبيعة القانون الحديدي للاوليكراتية . وقد ظهرت دراسته الاجتماعية والسياسية هذه في كتابه الشهير " الأحزاب السياسية " في بداية هذا الكتاب أشار ميشيل بأن الديمقراطية دائماً تتحول إلى الاوليكراتية التي تطغى عليها بعض الصفقات السلبية والمضرة للأفراد والجماعات الذين شاركوا في اختيار القادة التي تمثلهم وتدافع عن حقوقهم . واعتمد ميشيل في تعميماته الاجتماعية والسياسية على دراسته للأحزاب السياسية ونقابات العمال والمنشآت الصناعية والتجارية في إيطاليا . حيث شاهد بأن الممارسات الديمقراطية الهادفة إلى انتخاب قيادة المنظمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية من قبل أعضاء هذه المنظمات هي ممارسات لا تؤمن بديمقراطية هذه المنظمات . فسرعان ما تتحول القيادة الديمقراطية التي أنتخبها الأعضاء انتخاباً حراً وشريفاً إلى قيادة اوليكراتية أي قيادة شبه ديكتاتورية محتكرة من قبل عدد من القادة واتباعهم من المدراء العاميين والمدراء والخبراء الفنيين بل وحتى صغار الموظفين من أعضاء الجهاز الإداري . فالقادة المنتخبون من نقابات العمال مثلاً يعينون اتباعهم وأقاربهم وأنصارهم في المراكز الإدارية والتنفيذية العليا لنقابات العمال ويعطونهم صلاحيات واسعة لحكم وإدارة أمور هذه النقابات .

وهؤلاء الأقارب والأتباع المعينون في المراكز الحساسة يطيعون القادة الذين عينوهم طاعة عمياء . كما أن بقية أعضاء الجهاز الإداري المنفذ يودون كسب رضا القادة والتقرب إليهم وطاعتهم طاعة عمياء حتى ولو لم يكونوا على حق ، رغبة في الحصول على بعض المكاسب الشخصية منهم . وبالتالي تتحول إدارة المنظمة إلى إدارة متملفة ومزيفة وتحت التأثير المباشر للقادة المنتخبين . كما ان القادة أنفسهم يودون الاستمرار بالحكم والسيطرة لأطول فترة ممكنة ويكونوا مستعدين لاتخاذ أقصى العقوبات بحق من يخالفهم أو يتحداهم . وهنا تتحول الإدارة والقيادة الديمقراطية إلى قيادة شبه ديكتاتورية تسمى بالإدارة أو القيادة الاوليكراتية التي تكلم عنها روبرت ميشيل .

كما أن القيادة تكون بعيدة كل البعد عن آمال وطموحات وأمانى الأشخاص الذين انتخبوها وصوتوا لها في عملية الإقتراع السري . لذا يعتقد ميشيل بأن أغلب القيادات الديمقراطية في العالم خصوصاً العالم الرأسمالي الغربي الذي يطلق على نفسه العالم الديمقراطي الحر الذي يتشدد بالديمقراطية البرلمانية وبالحرريات والمساواة هي قيادات مزيفة تطغى عليها الصفات الاوليكراتية التي تكلم عنها ميشيل في سياق نظريته عن القانون الحديدي لحكم الأقلية .

أسئلة المحاضرة الثانية

السؤال الأول :

تحديثي / تحدث بالتفصيل عن إسهامات

علماء المسلمين في تطور علم الاجتماع السياسي

السؤال الثاني

أشرحي / أشرح بالتفصيل آراء ثلاث منظرين

ساهموا في تطور علم الاجتماع السياسي ؟

السؤال الثالث

قارني / قارن بين إسهامات ابن خلدون وماكس

فيبر في تطوير علم الاجتماع السياسي ؟